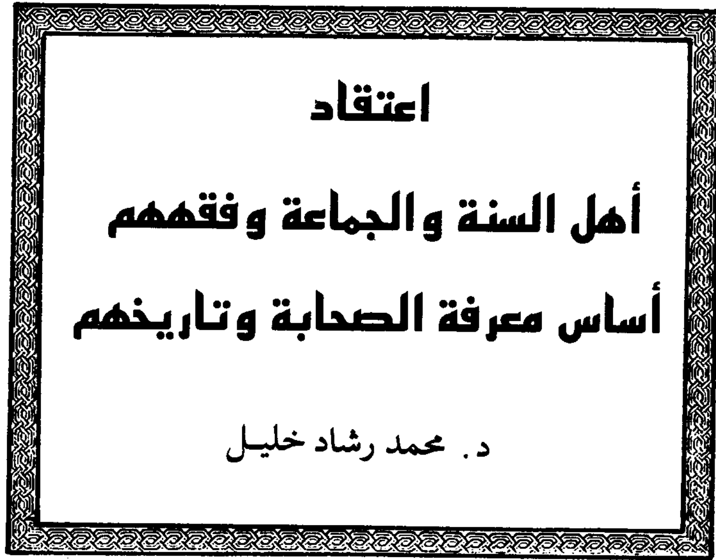

اعتقاد

أهل السنة والجماعة وفقههم

أساس معرفة الصحابة وتاريخهم

د. محمد رشاد خليل

الباحث في كلمات

الاسم : محمد رشاد محمد خليل .

تاريخ ومكان الميلاد : ١٩٢٨م ـ المنيا ـ مصر .

المؤهلات العلمية : دكتوراه في اللغة وآدابها ـ كلية الآداب ـ جامعة القاهرة ١٩٧٤م .

العمل الحالي : أستاذ مساعد بقسم الدراسات الإسلامية ـ كلية التربية ـ جامعة الملك سعود .

أهم البحوث والمؤلفات :

* مجموعة مقالات في مجلة الأزهر حول اللغة والأدب .
* سلسلة الفكر الإسلامي ومطالب الشباب ـ وقد جمع بعض منها في كتيب باسم : إنهم يحفرون الأخدود .
* سلسلة مقالات في مجلة المجتمع الكويتية عن التطور وأثره في مفهوم التجديد الإسلامي عند بعض المعاصرين .
* بحث عن الاشتقاق في اللغة العربية ودلالته الحضارية في مجلة الدارة السعودية
* بحث عن أثر القرآن في اللغة العربية .
* بحث عن الفلسفة وأثرها في أصول الدين : مجلة كلية أصول الدين ـ جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ـ العدد الخامس .
* كتاب : المنهج الإسلامي لدراسة التاريخ وتفسيره .
* كتاب : علم النفس الإسلامي العام والتربوي .

خصوصية تاريخ الصحابة رضوان الله عليهم :

تاريخ الصحابة رضوان الله عليهم تاريخ خاص، أى تاريخ له وضع خاص في التاريخ الإسلامي وفي التاريخ الإنساني.

ولقد كان من نتائج الجهل بهذه الخصوصية، هذا الجهل الفاضح في كتابات كثير ممن يتصدى لدراسة هذا التاريخ، ممن يقال عنهم إنهم متخصصون في التاريخ بل ومتخصصون في التاريخ الإسلامي، بل ومتخصصون في العصر الإسلامي الأول!! فضلا عن أولئك الهواة الذين خاضوا في هذا التاريخ بغير علم وبغير تخصص..

أساس الخصوصية :

ولا تأتي خصوصية تاريخ الصحابة فقط من كونه قد دخلت في تشكيله عوامل خارجة عن إطار العوامل العامة التى بمقتضاها تجرى سنن الله في التاريخ، وهذه العوامل الخارجة هي: النبوة والوحي وما يرتبط بهما وما يترتب عليهما من أحداث ونتائج تأتي على غير المألوف المتعارف عليه في الحوادث الجارية للناس.

إنما تأتي الخصوصية إلى جانب ذلك بل وبصورة أساسية من أن الله تعالى هو الذي حدد لنا منهج التعامل مع الصحابة، والحكم عليهم، والنظر في أخبارهم وجعل الرأي فيهم من أصول الإيمان التى لا يحل لمسلم يؤمن بالله واليوم الآخر أن يحيد عنها، أو يتجاوز حكم الله فيها كما سنبين ذلك.

سبب هذه الخصوصية :

وسبب هذه الخصوصية هو أن الله تعالى قد قضى أن تكون رسالة محمد صلى الله عليه وسلم خاتم الرسالات، وأن يكون محمد صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين، قال تعالى:

﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾

(الأحزاب: ٤٠)

لذا قضى سبحانه أن تبقى هذه الرسالة في الأرض ظاهرة على الدين كله لتقوم الحجة على الناس إلى أن يقضي الله فيهم أمرا كان مفعولا.

قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾

(التوبة: ٣٣)

من أجل ذلك تكفل سبحانه بحفظ كتابه الذي به حفظ دينه فقال:

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾

(الحجر: ٩)

قال مجاهد: أى حافظون له من التغيير والتبديل.

ولكى يحفظ الله تعالى كتابه من التغيير والتبديل أقام عليه حارسان هما: السنة والصحابة.

«وقد صنف الإمام أحمد رضى الله عنه كتابا في طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم رد فيه على من احتج بظاهر القرآن في معارضة سنن رسول الله صلى الله عليه وسلم وترك الاحتجاج بها فقال في أثناء خطبته: إن الله جل ثناؤه وتقدست أسماؤه بعث

محمداً بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، وأنزل عليه كتابه الهدى والنور لمن اتبعه، وجعل رسوله الدال على ما أراد من ظاهره وباطنه، وخاصه وعامه وناسخه ومنسوخه وما قصد له الكتاب؛ فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم هو المعبر عن كتاب الله الدال على معانيه، شاهده في ذلك أصحابه الذين ارتضاهم الله لنبيه واصطفاهم له، ونقلوا ذلك عنه، فكانوا وهم أعلم الناس برسول الله صلى الله عليه وسلم، وبما أراد من كتابه بمشاهدتهم وما قصد له الكتاب، فكانوا المعبرين عن ذلك بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال جابر: ورسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهرنا عليه ينزل القرآن وهو يعرف تأويله وما عمل من شيء عملنا به، ثم ساق الآيات الدالة على طاعة الرسول، فقال جل ثناؤه في سورة آل عمران:

﴿ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾

(آل عمران: ١٣١/١٣٢)

وقال: ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾

(آل عمران: ٣٢)

وبعد أن سرد الآيات الدالة على ذلك ذكر حديث يَعْلى بن أمية: طفت مع عمر، فلما بلغنا الركن الغربي الذي يلي الأسود جَررت بيده ليستلم، فقال: ما شأنك؟ فقلت: ألا تستلم؟ فقال: ألم تطف مع النبي صلى الله عليه وسلم؟ فقلت: بلى: قال أفرأيته يستلم هذين الركنين الغربيين؟ قلت: لا، قال: أليس لك فيه أسوة حسنة؟ قلت: بلى: قال: فانفذ عنك، قال: وجعل معاوية يستلم الأركان كلها، فقال له ابن عباس: لم تستلم هذين الركنين ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم

يستلمها؟ ؛ فقال معاوية : ليس شيء من البيت مهجورا ، فقال ابن عباس : لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة ، فقال معاوية صدقت»[1] .

حفظ الله تعالى للسنة والصحابة :

ولما كان حفظ الكتاب ، وحفظ الدين لا يتم إلا بحفظ السنة وحفظ الصحابة . .

ولما كان الله تعالى قد علم أن الطعن في الكتاب ، وتحريفه وتبديله ، وأن الطعن في الدين وتحريفه وتبديله سيكون عن طريق الطعن في السنة والتشكيك فيها ، والطعن في الصحابة والتشكيك فيهم ، فإنه سبحانه قد تكفل بحياطة سنة نبيه ، وقيض لها من يحفظها ، وتكفل بحياطة أصحاب نبيه وجعل من الأحكام والأوامر ما يحوطهم ويحفظهم ، وجعل من المسلمين من يتبعهم ويحفظهم ويحفظ عنهم ، وذلك مصداقا لقوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه البخاري ومسلم عن المغيرة رضى الله عنه : «لا يزال أناس من أمتي ظاهرين على الناس حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون» .

وأخرج البخارى ومسلم من حديث قتادة عن مطرف عن عمران بن حصين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : «لا يزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق حتى يقاتل آخرهم الدجال . وفي حديث يزيد : «ظاهرين على من ناوأهم حتى يأتي أمر الله وينزل عيسى بن مريم» . أخرجه اللالكائي في السنة .

وأخرج اللالكائي أيضا عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : ولا يزال عصابة من الناس لا يضرهم خلاف من خالفهم حتى يأتيهم أمر الله» قال المحقق سنده صحيح . رواه ابن ماجه عن طريق آخر عن أبي هريرة . . وذكر الهيثمي أنه رواه البزار وان رجاله رجال الصحيح غير زهير بن محمد بن قمير وهو ثقة نقله عن مجمع الزوائد ٧ : ٢٨٨ .

(١) أحمد بن حنبل ، الرد على الجهمية والزنادقة ص٨٥ .

ولذا قال الإمام أحمد رضى الله عنه في مقدمة الرد على الجهمية والزناقة: «الحمد لله الذي جعل في كل زمان فترة من الرسل، بقايا من أهل العلم يدعون من ضل إلى الهدى، ويصبرون منهم على الأذى، يحيون بكتاب الله الموتى، ويبصرون بنور الله أهل العمى، فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه، وكم من ضال تائه قد هدوه. فما أحسن أثرهم على الناس، وأقبح أثر الناس عليهم.

ينفون عن كتاب الله تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين، الذين عقدوا ألوية البدع، وأطلقوا عقال الفتنة فهم مختلفون في الكتاب مخالفون للكتاب، مجمعون على مفارقة الكتاب، يقولون على الله، وفي الله، وفي كتاب الله بغير علم يتكلمون بالمتشابه من الكلام، ويخدعون جهال الناس بما يشبهون عليهم، فنعوذ بالله من فتن الضالين»[1].

حفظ السنة للكتاب والدين :

نزل القرآن الكريم في كليات الإيمان التى تتعلق بالتوحيد واليوم الآخر تاما مفصلا بينا وكذلك في بيان أمور الإيمان والكفر والنفاق، وجاءت السنة في هذا الباب مؤكدة لكل ما جاء به الكتاب قولا وعملا، وزادت بيان أركان الإسلام والإيمان وأحوالهما وكذلك الكفر والنفاق ومسائل مثل الشفاعة والحوض وغيرها وكذلك الأمر في الأخلاق وفي الواجبات والمحرمات والأحكام عامة التى تتعلق بأفعال المكلفين كثيرا ما يأتى بيانها مجملا وتفصله السنة. .

فكانت السنة موافقة للقرآن، تفسر مبهمه، وتفصل مجمله، وتقيد مطلقه، وتخصص عامه، وتشرح أحكامه ومعانيه بالقول والعمل.

كذلك جاءت السنة بأحكام لم يدل عليها الكتاب وإنما أنشئت إنشاءاً وهذا النوع من الأحكام له حجية الكتاب وحكمه، لأنه حكم لله تعالى بوحي ترك للرسول صلى الله عليه وسلم بيانه بألفاظه.

(١) أحمد بن حنبل، الرد على الجهمية والزنادقة ص٨٥.

وقد زعم بعضهم أنه لا يلزمهم إلا ما وافق الكتاب، ويزعم آخرون أنهم ليسوا ملزمين بغير الكتاب، وهذا باطل لأن الله تعالى أمر بطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم استقلالا، فقال:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴾

(النساء: ٥٩)

فأمر بطاعة الرسول استقلالا من غير عرض على الكتاب ولم يأمر بطاعة أولي الأمر استقلالا وإنما بالعرض على الكتاب والسنة.

لذا قال الإمام السيوطي «من أنكر كون حديث النبي صلى الله عليه وسلم قولا كان أو فعلا بشرطه المعروف في الأصول حجة، كفر وخرج عن دائرة الإسلام وحشر مع اليهود والنصارى، أو مع من شاء الله من فرق الكفرة»[1].

حجية السنة:

وكانت بداية رد السنة إنكار الزنادقة وطائفة من الرافضة الاحتجاج بها، والاقتصار على القرآن «وهم في ذلك مختلفو المقاصد، فمنهم من كان يعتقد أن النبوة لعلي وأن جبريل ـ عليه السلام ـ أخطأ في نزوله إلى سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم، تعالى

(١) جلال الدين السيوطي، مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسنة ص١١.

الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا، ومنهم من أقر للنبي صلى الله عليه وسلم بالنبوة، ولكن قال: إن الخلافة كانت حقا لعلي، فلما عدل بها الصحابة عنه إلى أبي بكر - رضى الله عنهم أجمعين - قال هؤلاء المخذولون - لعنهم الله - كفروا حيث جاروا، وعدلوا بالحق عن مستحقه. وكفّروا - لعنهم الله - عليا رضى الله عنه لعدم طلبه حقه، فبنوا على ذلك رد الأحاديث كلها لأنها عندهم بزعمهم - من رواية قوم كفار، فإنا لله وإنا إليه راجعون»[1].

وقد تصدى الأئمة جميعهم لهؤلاء المبتدعة من الزنادقة والرافضة، وأفرد الإمام الشافعي رضى الله عنه فصلا طويلا في الرسالة، ذكر السيوطي أن البيهقي قد نقله في المدخل إلى دلائل النبوة، وبعد أن ساق البيهقي ما احتج به الشافعي على حجية السنة وحدها استقلالا قال: «ولولا ثبوت الحجة بالسنة لما قال النبي صلى الله عليه وسلم في خطبته بعد تعليم من شهده أمر دينهم: ألا فليبلغ الشاهد منكم الغائب، فرب مبلَّغ أوعى من سامع». وهذا الحديث سُطر من خطبة الوداع التى رواها جمع من الصحابة منهم أبو بكر، وعبدالله بن عباس.

ثم أورد حديث: «نضر الله امرءاً سمع منا حديثا فأداه كما سمعه، فرب مبلَّغ أوعى من سامع» وهذا الحديث روى عن نحو ثلاثين صحابيا وقيل أقل، ذكر ذلك الشيخ محمد بن جعفر الكتاني في كتابه «نظم المتناثر في الحديث المتواتر، كما نقل عنه الأستاذ بدر البدر في تعليقه على مفتاح الجنة.

وقد عقب الإمام الشافعي على ذلك الحديث بقوله: «فلما ندب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى استماع مقالته وحفظها وأدائها.. دل على أنه لا يأمر أن يؤدَّى عنه إلا ما تقوم به الحجة على من أدى إليه لأنه إنما يؤدى عنه: حلال يؤتى، وحرام يجتنب وحد يقام، ومال يؤخذ ويعطى، ونصيحة في دين ودنيا» ثم أورد البيهقي من حديث أبي رافع قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا ألفينَّ أحدكم متكئا على

(١) السيوطى، مفتاح الجنة ص١٢.

أريكته، يأتيه الأمر من أمرى مما أمرت به أو نهيت عنه يقول: لا أدرى، ما وجدنا في كتاب الله اتبعنا» أخرجه أبو داود والحاكم. وأورد المعلق عدد من أخرج هذا الحديث منهم أحمد والترمذي وصححه، وابن ماجة وابن حبان وغيرهم ثم قال: جميعهم عن طريق سالم أبي النضر عن عبيدالله بن أبي رافع عن أبيه مرفوعا به. قلت: وهذا إسناد صحيح[1].

وقد ساق البيهقي كما نقل السيوطي أحاديث أخرى تؤكد استقلال السنة، ثم فنّد دعوى الذين حاولوا أن يعارضوا النصوص الصريحة من القران والصحيحة من الأحاديث، وعقد لذلك بابا سماه: بيان بطلان ما يحتج به بعض من رد الأخبار من الأخبار التى رواها بعض الضعفاء من عرض السنة على القرآن.

ونقل قول الشافعي: «احتج عليّ بعض من رد الأخبار بما روى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ما جاءكم عنى فأعرضوه على كتاب الله، فما وافقه فأنا قلته وما خالفه فلم أقله». فقلت له: ما روى هذا أحد يثبت حديثه في شيء صغير ولا كبير، وإنما هى رواية منقطعة عن رجل مجهول، ونحن لا نقبل مثل هذه الرواية في شيء، وقال الشافعي: «وليس يخالف الحديث القرآن، ولكن حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم يبين ما أراد خاصا وعاما، وناسخا ومنسوخا، ثم يلزم الناس ماسن بفرض الله، فمن قبل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فعن الله قبل».

قال البيهقي: وقد روى الحديث من أوجه أخر كلها ضعيفة.

وبعد أن بين ذلك قال: «وأمثل إسناد روى في هذا المعنى ما رواه ربيعة عن عبدالملك بن سعيد بن سويد عن أبي حميد أو أبي أسيد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا سمعتم الحديث عنى تعرفه قلوبكم وتلين له أشعاركم وأبشاركم وترون أنه منكم قريب فأنا أولاكم به، وإذا سمعتم الحديث عنى تنكره قلوبكم وتنفر منه أشعاركم وترون أنه منكم بعيد فأنا أبعدكم منه».

(1) السيوطى. مفتاح الجنة ص١٩.

قال المعلق أخرجه أحمد وابن حبان والبزار وابن الجوزى عن أحمد جميعهم من طريق أبي عامر العقدى ثنا سليمان بن بلال عن ربيعة بن أبي عبدالرحمن عن عبدالملك بن سعيد بن سويد عن أبي حميد وأبي أسيد به. قلت: وهذا إسناد صحيح رجاله رجال الشيخين ما عدا عبدالملك بن سعيد فإنه من رجال مسلم وحده... الخ.

وبعد أن ذكر البيهقي حديثا آخر أعله البخارى نقل قول البخارى «وعلى الأحوال كلها: حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الثابت عنه قريب من المعقول، موافق للأصول لا ينكره عقل من عقل عن الله الموضع الذي وضع به رسول الله صلى الله عليه وسلم من دينه. وما افترض على الناس من طاعته، ولا ينفر منه قلب من اعتقد تصديقه فيما قال، واتباعه فيما حكم به، وكما هو جميل حسن من حيث الشرع، جميل في الأخلاق، حسن عند أولى الألباب. هذا هو المراد بما عسى أن يصح من ألفاظ هذه الأخبار».

أقول وهذا القول لا ينصرف إلا إلى من كان ملازما للجماعة عارفا بالحديث والقرآن، متبعا غير متبدع، لأن كثيرا ممن رد ويرد الحديث الصحيح إلى يومنا هذا يزعم أنه يعارض المعقول، أو يعارض العلم، وما أشبه، وهؤلاء إنما هم في الحقيقة يعارضون الصحيح بمعقولات لا تصح عند ذوى العقول الذين عقلوا عن الله ورسوله، ولزموا ما جاء به الكتاب وجاءت به السنة؛ فأهل الأهواء يردون الصحاح التى تعارض ضلالاتهم بزعمهم أنها تعارض الكتاب أو تعارض المعقول، وذلك حتى يتسنى لهم أن ينزلوا كتاب الله على مقتضى أهوائهم بالتحريف والتبديل.

وبعض أهل الرأى يعارضون السنن، إما عن جهل، وإمّا عن سوء فهم، فليس كل أصحاب الرأى من أصحاب الأهواء الذين يقصدون عن عمد إلى تحريف الدين وتبديله، ذلك أن هناك من يعارض السنة الصحيحة برأيه وهو لا يعلم في الموضوع سنة صحيحة، وقد كان الأمر يقتضى أن يعرف السنة أولا قبل أن يقول برأيه، ولذا كان الصحابة يكرهون القول في دين الله برأيهم، وينهون عن ذلك ويحذرون منه فقد

أخرج البخارى عن أبي وائل قال: لما قدم سهل بن حنيف من صفين أتيناه نستخبره فقال: اتهموا الرأى على الدين، فلقد رأيتنى يوم أبي جندل [أى يوم الحديبية] ولو أستطيع أن أرد على رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره لرددت، والله ورسوله أعلم، ما وضعنا أسيافنا على عواتقنا في أمر يفظعنا إلا سهل بنا إلى أمر نعرفه قبل هذا الأمر، ما سددنا عنه خصما إلا انفجر علينا خصم ما ندرى كيف نأتى إليه». وأخرج البيهقي عن علي - رضى الله عنه قال: لو كان الدين بالرأي لكان باطن الخفين أحق بالمسح من ظاهرها.

حجية حديث الآحاد :

كما أن هناك من يعارض الآثار الصحيحة وهو يعرفها نتيجة سوء فهم إما لتوهمه أنها تعارض معقولا صريحا وهى ليست كذلك، وإما لتصوره أنها تعارض علما صحيحا وهي ليست كذلك، وذلك الصنف يحتاج إلى تنبيه وتوضيح وبيان يرفع التعارض حتى لا يدفعه توهم التعارض إلى القول بأن أحاديث الآحاد ليست حجة بإطلاق أو ليست حجة في أمور الاعتقاد كما زعم فريق من المتكلمين الذين ردوا بعض أحاديث الصفات بالتأويل الذى يخرجها عن معناها، وحين لا يسعفهم التأويل يقولون إنها ليست حجة لأنها أحاديث آحاد، وقد عقد الإمام الشافعي رضى الله عنه في الرسالة فصلا نفيسا جدا في «الحجة في تثبيت خبر الواحد» وهو فصل يهدم بالأدلة القاطعة حجة القائلين بأن خبر الواحد ليس بحجة استنادا إلى قاعدة كلامية فرقوا بها بين القطعي والظني من النصوص، وفرقوا بين النوعين بأن القطعي يوجب العلم، والظني لا يوجبه، وأنه قد يوجب العمل دون العلم وقد عقد ابن قيم الجوزية فصلا نفيسا جدا في تفنيد هذه القاعدة في كتابة الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ومما جاء فيه قوله: «فهذا الذي اعتمده نفاة العلم عن أخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم خرقوا به إجماع الصحابة المعلوم بالضرورة وإجماع التابعين وإجماع أئمة الإسلام ووافقوا به المعتزلة والجهمية والرافضة والخوارج الذين انتهكوا هذه الحرمة وتبعهم بعض الأصوليين والفقهاء، وإلا فلا يعرف لهم سلف من الأئمة بذلك بل صرح

الأئمة بخلاف قولهم، فممن نص على أن خبر الواحد يفيد العلم مالك والشافعي وأصحاب أبي حنيفة وداود بن علي وأصحابه كمحمد بن حزم ونص عليه الحسين بن على الكرابيسى والحارث بن أسد المحاسبى قال ابن خوارز ـ منداد في كتاب أصول الفقه وقد ذكر خبر الواحد الذي لم يروه إلا الواحد والاثنان: ويقع بهذا الضرب أيضا العلم الضرورى نص على ذلك مالك، وقال أحمد في حديث الرؤية نعلم أنها حق ونقطع على العلم بها وكذلك روى المروزى قال قلت لأبي عبدالله ههنا إثنان يقولان أن الخبر يوجب عملا ولا يوجب علما فعابه وقال لا أدرى ما هذا وقال القاضى وظاهر هذا أنه يسوى بين العلم والعمل وقال القاضى في أول الخبر: خبر الواحد يوجب العلم إذا صح سنده ولم تختلف الرواية فيه وتلقته الأمة، بالقبول، وأصحابنا يطلقون القول فيه وأنه يوجب العلم.

وبعد هذا الكلام ذكر رواية أخرى للمروزي عن أحمد أنه قال: إذا جاء الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بإسناد صحيح فيه حكم أو فرض عملت به ودنت به ولا أشهد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ذلك» وقد أجل الكلام على هذه الرواية إلى ما بعد ذكر بقية الأقوال التى توجب العلم بخبر الواحد وبعد أن أورد هذه الأقوال قال: «وأما رواية الأثرم عن أحمد أنه لا يشهد على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخبر ويعمل به فهذه رواية انفرد بها الأثرم وليست في مسائله ولا في كتاب السنة، وإنما حكاها القاضى أنه وجدها في كتاب معاني الحديث والاثرم لم يذكر أنه سمع ذلك منه بل لعله بلغه من عندواهم وهم عليه في لفظه فلم يرو عنه أحد (يعني أحمد) من أصحابه ذلك بل المروى الصحيح عنه أنه جزم على الشهادة للعشرة بالجنة، والخبر في ذلك خبر واحد ولعل توقفه عن الشهادة على سبيل الورع . . . إلخ».

ونعود إلى سياق الأقوال التى توجب العلم بخبر الواحد «وقال ابن أبي يونس في أول الإرشاد: وخبر الواحد يوجب العلم والعمل جميعا، ونص القاضى أبو يعلى على هذا القول في الكفاية، وقال الشيخ أبو إسحاق الشيرازي في كتبه في الأصول كالتبصرة وشرح اللمع وغيرهما، وهذا لفظه في الشرح: وخبر الواحد إذا تلقته الأمة بالقبول يوجب العلم والعمل سواء عمل به الكل أو البعض ولم يحك فيه نزاعا بين

أصحاب الشافعي ، وحكى هذا القول القاضي عبدالوهاب من المالكية عن جماعة من الفقهاء ، وصرحت الحنفية في كتبهم بأن الخبر المستفيض يوجب العلم ومثلوه بقول النبي صلى الله عليه وسلم «لا وصية لوارث» فالواقع أنه إنما روى عن طريق الآحاد . . »[1].

حاجة القرآن إلى السنة :

وقد أدرك سلفنا الصالح أهمية السنة الشديدة بالنسبة للقرآن خاصة والدين عامة ، فقد أخرج الخطيب في الكفاية وابن عبدالبر في الجامع وغيرهما بسند صحيح عن مكحول أنه قال : القرآن أحوج إلى السنة من السنة إلى القرآن .

وأخرج الدارمي وسعيد بن منصور عن يحيي بن كثير قال : السنة قاضية على الكتاب ، وليس الكتاب قاضيا على السنة» إسناده حسن لغيره .

وأخرجه الهروى عن سعيد بن منصور بإسناد صحيح .

قال البيهقي : ومعنى ذلك أن السنة مع الكتاب أقيمت مقام البيان عن الله كما قال الله : ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾

(النحل : ٤٤)

لا أن شيئا من القرآن يخالف السنة .

قال السيوطي ـ قلت : والحاصل أن معنى احتياج القرآن إلى السنة أنها مبينة له ، ومفصلة لمجملاته ، لأن فيه لو جازته كنوزا تحتاج إلى من يعرف خفايا خباياها فيبرزها ، وذلك هو المنزل عليه صلى الله عليه وسلم ، وهو معنى كون السنة قاضية عليه ، وليس القرآن مبينا للسنة ولا قاضيا عليها لأنها بينة بنفسها إذ لم تصل إلى حد القرآن من الإعجاز والإيجاز ، لأنها شرح له ، وشأن الشرح أن يكون أوضح وأبين وأبسط من المشروح ، والله أعلم»[2].

---

(١) ابن القيم ، مختصر الصواعق المرسلة جـ٢ ص٣٦٢/٣٧١ .

(٢) السيوطي ، مفتاح الجنة ص ٧٣ .

حفظ الله الكتاب والسنة والدين جملة بالصحابة :

كما أن الكتاب والدين جملة يحتاجان إلى السنة لبيانهما وحفظهما، فكذلك يحتاج الكتاب والدين والسنة إلى من يحفظهم، لأن الكتاب والسنة والدين هي :

أولا : نصوص لابد لها من حفظة، يعونها في صدورهم وكتبة يكتبونها بأيديهم ثم هي :

ثانيا : أحكام وأوامر ونواهي ومواعظ وأخبار لابد من فهمها على وجهها حسب مراد الله فيها ثم هي :

ثالثا : علم نزل من عند الله تعالى للعمل به وليس لمجرد حفظه والعلم به، ولابد أن يكون هذا العمل هو العمل المرضى من الله تعالى وليس أى عمل، بل العمل المقرون بالإيمان، لأن الإسلام قول وعمل وتصديق بالقلب فالمطلوب إذن بالنسبة للإسلام ونصوصه: حفظ وفهم وعمل يحفظ به الدين ويحفظ به الكتاب وتحفظ به السنة، وهذا هو تأويل قوله تعالى :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾

(الحجر: ٩)

وتأويل قوله : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾

(التوبة : ٣٣)

وليس تأويل الحفظ أن الله تعالى سيحفظه بلا أسباب، أو يحفظه بأسباب من غير جنس الأسباب التى يكون بها الحفظ في الناس.

وليس تأويل الإظهار أن الله يظهر الدين بلا أسباب، أو يظهره بأسباب من غير جنس الأسباب التى يكون بها الظهور في الناس.

الشروط توفرت في الصحابة رضي الله عنهم

والذين توفرت فيهم الشروط كاملة هم الصحابة رضوان الله عليهم فقد حفظوا وعلموا وعملوا مع إيمان وتصديق.

علـــم الصحابـــة :

أجمع التابعون وتابعوهم على أن الصحابة أعلم هذه الأمة، وأنه لا يكون في العلم مثلهم، وهذا الذي نقل عن الإمام الشافعي هو قول مالك وأبي حنيفة وأحمد وغيرهم من الأئمـة لا نعـرف أحدا منهم قدم نفسه أو قدم غيره من التابعين وتابعيهم على الصحابة في العلم والفضل.

«وكما أن الصحابة سادة الأمة وأئمتها وقادتها فهم سادات المفتين والعلماء قال الليث عن مجاهد: العلماء أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، وقال سعيد عن قتادة في قوله تعالى:

﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾

(سبأ: ٦)

قال: أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم

وقال أبو البَخْتَرى: قيل لعلي بن أبي طالب: حدثنا عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: عن أيهم؟ قال: عن عبدالله بن مسعود، قال: قرأ القرآن وعلم السنة ثم انتهى وكفاه بذلك، قال: فحدثنا عن حذيفة، قال: أعلم أصحاب محمد بالمنافقين، قالوا: فأبوذر، قال: كنيف ملى علما عجز فيه، قالوا: فعَمار، قال:

مؤمن نَسِيٌّ إذا ذكرته ذكر، خلط الله الإيمان بلحمه ودمه، ليس للنار فيه نصيب، قالوا: فأبو موسى، قال: صبغ في العلم صبغة، قالوا: فحدثنا عن نفسك يا أمير المؤمنين، قال: إياها أردتم، كنت إذا سئلت أعطيت وإذا سكت ابتديت»[1].

«والدين والفقه والعلم انتشر في الأمة عن أصحاب ابن مسعود، وأصحاب زيد بن ثابت وأصحاب عبدالله بن عمر، وأصحاب عبدالله بن عباس؛ فعلم الناس عامة عند أصحاب هؤلاء الأربعة، فأما أهل المدينة فعلمهم عن أصحاب زيد بن ثابت وعبدالله بن عمر، وأما أهل مكة فعلمهم عن أصحاب عبدالله بن عباس وأما أهل العراق فعلمهم عن أصحاب عبدالله بن مسعود»[2].

وكان إمام أهل السنة الإمام أحمد يفتي بالنصوص فإن لم يجد أفتى بما أفتى به الصحابة ولا يقدم عليها عملا ولا رأيا ولا قياسا[3].

ومذهب الإمام أبي حنيفة تقديم الحديث الضعيف وآثار الصحابة على القياس والرأى.

والذي عليه جماهير الطوائف[4] من الفقهاء أن قول الصحابي إذا لم يخالف فيه صحابيا آخر إذا اشتهر قوله بين الصحابة: فهو اجماع وحجة، وقالت طائفة منهم: هو حجة وليس بإجماع، وقالت شرذمة من المتكلمين وبعض الفقهاء المتأخرين: لا يكون إجماعا ولا حجة؛ وإن لم يشتهر قوله أو لم يعلم هل اشتهر أم لا فاختلف الناس: هل يكون حجة أم لا؟ فالذي عليه جمهور الأمة أنه حجة، هذا قول جمهور الحنفية، صرح به محمد بن الحسن، وذكر عن أبي حنيفة نصا، وهو مذهب مالك وأصحابه، وتصرفه في موطئه دليل عليه، وهو قول إسحاق بن راهويه وأبي عبيد، وهو منصوص الإمام أحمد في غير موضع عنه واختيار جمهور أصحابه، وهو منصوص

(١) ابن القيم أعلام الموقعين جـ١ ص١٤/١٦.
(٢) نفس المصدر ص٢١.
(٣) انظر نفس المصدر ص٢٨/٣١.
(٤) انظر نفس المصدر ص٧٧.

الشافعي في القديم والجديد»[1].

من أجل ذلك أجمع الأئمة والعلماء والأمة على وجوب اتباع الصحابة في العلم.

وجوب اتباع الصحابة

وقد استدل على وجوب اتباع الصحابة بأدلة كثيرة من الكتاب والسنة وأظهرها ما احتج به مالك، وهو قوله تعالى:

﴿ وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَـٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾

(التوبة: ١٠٠)

فوجه الدلالة أن الله تعالى أثنى على من اتبعهم.

ومن أظهرها كذلك قوله تعالى:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾

(التوبة: ١١٩)

قال غير واحد من السلف: هم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم.

وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ ﴾

(البقرة: ١٤٣)

---

(١) ابن القيم، أعلام الموقعين جـ٤ ص١٢٠.

ووجه الاستدلال بالآية أنه تعالى أخبر أنه جعلهم أمة خيارا عدولا، هذا حقيقة الـوسط فهم خير الأمم وأعـدل لها في أقوالهم وأعمالهم وإرادتهم ونياتهم، والصحابة لا يشهدون إلا بالحق، فمن خالفهم فقد خالف الحق الذي شهدوا به، لأنه ليس مع الخلق شيء من الحق خلاف ما شهد به الصحابة قط ولا يكون فمن شهدوا له كان معهم وكان على الحق، ومن لم يشهدوا له لم يكن معهم ولم يكن على الحق.

ومنها ما رواه الإمام أحمد وغيره عن ابن مسعود رضى الله عنه قال: من كان متأسِّيا فليتأس بأصحاب محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإنهم كانوا أبر هذه الأمة قلوباً، وأعمقها علما، وأقلها تكلفا، وأقومها هدْيا، وأحسنها حالا، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه، وإقامة دينه فاعرفوا لهم فضلهم، واتبعوا آثارهم، فإنهم كانوا على الهُدى المستقيم».

ومنهـا مارواه الطبراني وأبو نعيم وغيرهما عن حذيفة بن اليمان أنه قال: يا معشر القراء، طريق من كان قبلكم، فوالله لئن استقمتم لقد سَبقتم سبقا بعيدا، ولئن تركتموه يمينا وشمالا لقد ضللتم ضلالا بعيدا».

وكذلك ما قاله جندب بن عبدالله رضى الله عنه لفرقة دخَلَت عليه من الخوارج، فقالوا: ندعوك إلى كتاب الله، فقال: أنتم؟ قالوا: نحن، قال: أنتم؟ قالوا نحن، فقال: يا أخابيث خلق الله في اتباعنا تختارون الضلالة، أم في غير سنتنا تلتمسون الهدى؟ أخرجوا عني».

ومنها ما رواه الترمذي من حديث العِرْباض بن سارية رضى الله عنه قال: وعظنا رسـول الله صلى الله عليه وسلم موعـظة بليغـة ذرفت منهـا العيون، ووجلت منها القلوب، فقـال قائـل: يا رسول الله كأنها موعظة مودع، فماذا تعهد إلينا؟ فقال: عليكم بالسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة، وعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها، وعَضُّوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومُحـدثـات الأمور، فإن كل مُحْدثة بدْعة، وكل بدعة ضلالة» وهذا حديث حسن، إسناده لا بأس به، فقرن سنة خلفائه بسنته وأمر باتباعها كما أمر بإتباع سنته،

وبالغ في الأمر بها حتى أمر بأن يُعض عليها بالنواجذ.

من أجل ذلك قال عمر بن عبدالعزيز رضى الله عنه: «قف حيث وقف القوم، وقل كما قالوا، واسكت كما سكتوا، فإنهم عن علم وقفوا، وببصرنا قد كفوا، وهم على كشفها كانوا أقوى، وبالفضل لو كان فيها أحرى».

وقال أيضا كلاما كان مالك بن أنس وغيره من الأئمة يستحسنونه ويحدثون به دائما، قال: سنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم لولاة الأمر بعده سننا الأخذ بها تصديق لكتاب الله، واستكمال لطاعته، وقوة على دينه ليس لأحد تغييرها ولا تبديلها ولا النظر في رأي من خالفها، فمن اقتدى بما سنوا فقد اهتدى، ومن استنصر بها منصور، ومن خالفها واتبع غير سبيل المؤمنين ولاه الله ما تولى وأصلاه جهنم وساءت مصيرا، ومن هنا أخذ الشافعي الاحتجاج بهذه الآية على أن الإجماع حجة»[1]، ولكن لما ذهب العلم بذهاب العلماء ظن الجهال المتعالمون بالجدل أنهم أعلم من الصحابة.

الصحابة وهم السلف أعلم من الخلف

ذلك أنه لما دخل على المسلمين الجدل المذموم الذي نهى عنه الله تعالى ورسوله وغلب على طوائف منهم متبعين سنن من كان قبلهم ممن أراد الله بهم سوءا آتاهم الجدل وحرمهم العمل كما حدث الصادق صلى الله عليه وسلم ظن هؤلاء أن الجدل هو العلم، مع أن رسولهم صلى الله عليه وسلم قال: ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل وحرموا العمل» أخرجه الترمذي عن أبي امامة وقال: حسن صحيح.

لذا فشت في هؤلاء مقولة فاسدة باطلة تزعم أن علم السلف أسلم وعلم الخلف أحكم، وكذبوا فإن علم السلف أسلم وأحكم، ذلك السلف ما سكتوا إلا لما كان السكوت أوجب، فهم لما سكتوا سكتوا بعلم، ولما تكلموا تكلموا بعلم، فما سكتوا

(١) الأدلة على وجوب الاتباع مأخوذ من إعلام الموقعين لابن القيم من ص١٢٣ إلى ص١٥١ مع تصرف في الترتيب والتعليق فليراجع.

عنه وتكلم فيه الخلف كان السكوت فيه أوجب ولم يأت الخلف فيه إلا بباطل من القول وزورا، ذلك فيما يتعلق بالكلام في التوحيد ومسائل الاعتقاد، أما فيما يتعلق بتصنيف العلوم فتلك أمور لم يكن الصحابة يحتاجون إليها سواء في ذلك علوم اللغة والبلاغة، أو علوم التفسير والحديث والفقه، لأن اللغة سليقتهم والدين كله مأخوذ عنهم.

فالصحابة أعلم الأمة كلها من التابعين وتابعيهم وتابعي تابعيهم ومن جميع الأئمة وأتباعهم فضلا عن المقلدين والمدعين للعلم في كل زمن إلى قيام الساعة.

الصحابة أتم الأمة عقلا وأفصحها لسانا

والصحابة ليسوا أعلم لأنهم هم الذين تلقوا العلم عن الرسول صلى الله عليه وسلم ونقلوه إلى من بعدهم فقط، وإنما هم أعلم لأنهم أصح عقلا، وأفصح لسانا، وأحد أذهانا، وأعلى مدارك، وأسرع بديهة، وأقوى حفظا، وأدق فهما، وعلى الجملة فهم أتم في كل ما يحتاجه العلم لحفظه وفهمه واستنباطه.

يقول ابن القيم: «فلا ريب أنهم كانوا أبر قلوبا، وأعمق علما، وأقل تكلفا وأقرب إلى أن يوفقوا لما لم نوفق فيه، لما خصهم الله تعالى به من توقد الأذهان وفصاحة اللسان، وسعة العلم، وسهولة المأخذ، وحسن الإدراك وسرعته، وقلة المعارض أو عدمه، وحسن القصد، وتقوى الرب تعالى.

فالعربية طبيعتهم وسليقتهم، والمعاني الصحيحة مَرْكوزة في فِطَرهم وعقولهم، ولا حاجة بهم إلى النظر في الإسناد وأحوال الرواة وعلل الحديث والجرح والتعديل، ولا إلى النظر في قواعد الأصول وأوضاع الأصوليين، بل غنوا عن ذلك كله، فليس في حقهم إلا أمران.

أحدهما: قال الله تعالى كذا، وقال رسوله كذا.

والثاني: معناه كذا وكذا. وهم أسعد الناس بهاتين المقدمتين، وأحظى الأمة

بها، فقواهم متوفرة مجتمعة عليها، وأما المتأخرون فقواهم متفرقة، وهممهم متشعبة، فالعربية وتوابعها قد أخذت من قُوى أذهانهم شعبة، والأصول وقواعدها قد أخذت منها شعبة، وعلم الإسناد وأحوال الرواة قد أخذ منها شعبة وفكرهم فى كلام مصنفيهم وشيوخهم على اختلافهم وما أرادوا به قد أخذ منها شعبة، إلى غير ذلك من الأمور، فإذا وصلوا إلى النصوص النبوية إن كان لهم همم تسافر إليها وصلوا إليها بقلوب وأذهان قد كلت من السير في غيرها وأوْهن قُواهم مواصلة السرى في سواها، فأدركوا من النصوص ومعانيها بحسب تلك القوة، وهذا أمر يحس به الناظر في مسألة إذا استعمل قوى ذهنه في غيرها، ثم صار إليها وافاها بذهن كالٍّ وقوة ضعيفة، وهذا شأن من استفرغ قواه في الأعمال غير المشروعة تضعف قوته عند العمل المشروع، كمن استفرغ قوته في السماع الشيطاني فإذا جاء الليل قام إلى ورده بقوة كالة وعزيمة باردة، وكذلك من صرف قوى حبه وإرادته إلى الصور أو المال أو الجاه، فإذا طالب قلبه بمحبة الله فإن انجذب معه انجذب بقوة ضعيفة قد استفرغها في محبة غيره، فمن استفرغ قوى فكره في كلام الناس، فإذا جاء إلى كلام الله ورسوله جاء بفكرة كالة فأعطى بحسب ذلك.

والمقصود أن الصحابة أغناهم الله تعالى عن ذلك كله، فاجتمعت قواهم على تينك المقدمتين فقط، هذا إلى ما خصوا به من قوى الأذهان وصفائها، وصحتها وقوة إدراكها وكماله، وكثرة المعاون، وقلة الصارف، وقرب عهد بالنبوة والتلقى من تلك المشكلة النبوية، فإذا كان هذا حالنا وحالهم فيما تميزوا به علينا، وما شاركناهم فيه فكيف نكون نحن وأشياخنا أو شيوخهم أو من قلدناه أسْعدَ بالصواب منهم في مسألة من المسائل؟.

ومن حدث نفسه بهذا فليعزلها من الدين والعلم»[1] يعنى أنه ليس من الدين والعلم في شيء، وهذا حق.

(١) ابن القيم، إعلام الموقعين جـ٤ ص١٤٨/١٥٠.

الصحابة أعلم الأمة بالعربية

وعليه فإن الصحابة أعلم الأمة بالعربية التى نزل القرآن بلسانها، وقد نوه القرآن بذلك، وبين أن القرآن نزل بلسان العرب، وسمى لسان العرب بالمبين فقال تعالى:

﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾

(الشعراء: ١٩٢/ ١٩٥)

وفسر اللسان العربي المبين بأنه غير ذى عوج أى لا اعوجاج فيه ولا إنحراف ولا لبس بل هو بيان ووضوح وبرهان، وتلك وإن كانت صفات القرآن إلا أنها في نفس الوقت صفات اللسان العربي، لأن اللسان لو كان فيه اعوجاج وانحراف لما قدر أن يبين ويوضح ولما نزل به القرآن الذي نزل للبيان والإيضاح والبرهان؛ قال تعالى:

﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾

(الزمر: ٢٨)

وسمى الله القرآن عربيا فقال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾

(الشورى: ٧)

وذلك تشريف للعربية يدل على شرفها ومكانها عند الله تعالى، إذ نسب كلامه غير المخلوق لها وسماه باسمها تنويها بقدرها ومكانها، وكمال بيانها.

والصحابة هم صفوة ذلك الجيل من العرب الذين نزل القرآن بلسانهم، والذين إليهم انتهى بيان العربية، وفصاحتها، فهم أفصح العرب وأبينهم ورسولهم عليه السلام هو أفصح العرب وأفصح من الصحابة وأبين.

وقد نزل القرآن الكريم بأفصح ما نطقت به العرب، كما جاء ببيان أبين من كل ما قالته العرب شعرا ونثرا، ولا يمكن لأحد أن يعرف حقيقة فصاحة القرآن وحقيقة بيانه إلا إذا كان عالما بالعربية وبما قيل فيها، وقد حوى الصحابة رضوان الله عليهم ذلك كله وتفرق فيهم ولم يخرج عنهم ولذا كان إمام المفسرين ابن عباس رضى عنه إذا أشكل عليه معرفة معنى كلمة لم تنطقها قريش مما تكلمته بعض القبائل يأخذ معناها من أحد العالمين بها لأن الصحابة رضوان الله عليهم توزعوا في جميع قبائل العرب فلم تخرج اللغة عنهم، ولم يند عن مجموعهم لفظ من ألفاظها أو معنى من معانيها ولذا قال الإمام الشافعي: «ولسان العرب أوسع الألسنة مذهبا، وأكثرها ألفاظا، ولا نعلمه يحيط بجميع علمه إنسان غير نبي، ولكنه لا يذهب منه شيء على عامتها، حتى لا يكون موجودا فيها من يعرفه.

ولسان العرب عند خاصتها وعامتها: لا يذهب منه شيء عليها، ولا يطلب عند غيرها، ولا يعلمه إلا من قبله عنها، ولا يشركها فيه إلا من اتبعها في تعلمه منها، ومن قَبِلَه منها فهو من أهل لسانها»[1].

ولأنهم أعلم الناس بلسان العرب صاروا إلى جانب ما علمهم الرسول من معاني الكتاب أعلم الناس بالكتاب، ولذا لم يكن الصحابة في حاجة إلى كتب التفسير التى يعد بعضها بعشرات الأجزاء والتى تكلمت في لغة القرآن ونحوه وصرفه وبلاغته، فكل هذا كان يعلمه الصحابة بأفضل مما يعلمه أصحاب هذا التفاسير.

قال الشافعي: «إنما ابتدأت بما وصفت من أن القرآن نزل بلسان العرب دون غيره، لأنه لا يَعْلَم من إيضاح جُمَل علم الكتاب أحد جهل سعة لسان العرب، وكثرة وجوهه، وجماع معانيه، وتفرقها، ومن علمه انتفت عنه الشبه التى دخلت على من جهل لسانها.

فإنما خاطب الله بكتابه العرب بلسانها، على ما تعرف من معانيها، وكان مما تعرف

(١) الشافعي؛ الرسالة ص٤٢/٤٤.

من معانيها اتساعُ لسانها. وأن فِطرته [أى اللسان] أن يخاطب بالشيء منه عاما ظاهرا يراد به العام الظاهر، ويستغنى بأول هذا عن آخره. وعاما ظاهرا يراد به العام ويدخله الخاص، فيستدل على هذا ببعض ما خوطب به فيه، وعاما ظاهرا يراد به الخاص. وظاهرا يعرف في سياقه أنه يراد به غير ظاهره، فكل هذا موجود علمه في أول الكلام أو وسطه أو آخره.

وتبتدىء الشيء من كلامها يُبين أوّل لفظها فيه عن آخره. وتبتدىء الشيء يُبين آخر لفظها منه عن أوله.

وتكلَّمُ بالشيء تُعرِّفُه بالمعنى دون الإيضاح باللفظ كما تُعرِّفُ الإشارةُ، ثم يكون هذا عندها من أعلى كلامها، لانفراد أهل علمها به، دون أهل جهالتها وتُسمِّى الشيء الواحد بالأسماء الكثيرة، وتسمى بالاسم الواحد المعاني الكثيرة. وكانت هذه الوجوه التى وصفت اجتماعها في معرفة أهل العلم منها بها - وإن اختلفت أسباب معرفتها - معرفة واضحة عندها، ومستنكرا عند غيرها، ممن جهل هذا من لسانها، وبلسانها نزل الكتاب وجاءت السنة، فتكَلُّف القول في علمها تكلُّف ما يَجْهل بعضه.

ومن تكلف ما جهل ومالم تُثْبته معرفته: كانت موافقته للصواب إن وافقه من حيث لا يعرفه - غير محمودة، والله أعلم، وكان بخطئه غير معذور إذا ما نطق فيما لا يحيط علمه بالفرق بين الخطأ والصواب فيه»[1].

من أجل ذلك أوجب الشافعي رضى الله عنه على كل مسلم أن يتعلم من لسان العرب ما بلغه جهده[2]، ومن أجل فقهه بالعربية كان هو واضع علم أصول الفقه لأن أصول الفقه في الكتاب والسنة مبناه على العربية.

(١) الشافعي، الرسالة ص٥٠ / ٥٢.

(٢) نفس المصدر ص٤٨.

الصحابة أعلم بالإسلام وعلومه نقلا وعقلا

العلم بالعربية أساس العلم بالإسلام وعلومه :

إن من لا يعرف العربية لا يعرف الإسلام أقولها بصراحة وبلا حرج في عصر تصور فيه كثير من المسلمين من غير العرب، بل ومن العرب أن العلم بالعربية ليس أساسا للعلم بالإسلام وهذا قول باطل وقد بينا سابقا أن من لا يعرف العربية لا يعرف القرآن.

ولقد كان أول شرك ظهر في الإسلام من العجمة فإن أول من تكلم في القدر من الأعاجم قال الأوزاعي : «أول من نطق في القدر: رجل من أهل العراق يقال له: سوسن - وقيل سنسويه - كان نصرانيا فأسلم ثم تنصر فأخذ عنه معبد الجهنى وأخذ غيلان عن معبد»[1].

وقال أبو الحسن بن مهدى: حدثنا محمد بن هارون ثنا هميم بن همام ثنا حرملة قال: سمعت الشافعي : يقول: ما جهل الناس ولا اختلفوا إلا لتركهم لسان العرب وميلهم إلى لسان أرسطاطاليس. أورد هذا النص من هذا الطريق قاضى المسلمين الحافظ عز الدين عبدالعزيز بن قاضى القضاة بدر الدين بن جماعة في تذكرته. وأشار الشافعي بذلك إلى ما حدث في زمن المأمون من القول بخلق القرآن ونفى الرؤية وغير ذلك من البدع، وأن سببها الجهل بالعربية والبلاغة الموضوع فيها من المعاني والبيان والبديع الجامع لجميع ذلك قوله: لسان العرب الجارى عليه نصوص القرآن والسنة وتخريج ما ورد فيها على لسان يونان ومنطق أرسطاطاليس هو في حيز، ولسان العرب في حيز؛ ولم ينـزل القـرآن، ولا أتت السنـة إلا على مصطلح العرب ومذاهبهم في المحـاورة والتخاطب والاحتجاج والاستدلال لا على مصطلح يونان ولكل قوم لغة واصطلاح.

---

(١) اللالكائي، شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة جـ٤ ص٧٥٠.

وقد قال تعالى:

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾

(إبراهيم: ٤)

فمن عدل عن لسان الشرع إلى لسان غيره وخرج الوارد من نصوص الشرع عليه جهل وضل ولم يصب القصد. ولهذا نرى كثيرا من أهل المنطق إذا تكلم في مسألة فقهية وأراد تخريجها على قواعد علمه أخطأ ولم يصب ما قالته الفقهاء ولا جرى على قواعدهم»[1].

وقال السيوطي: «وقد وجدت السلف قبل الشافعي أشاروا إلى ما أشار إليه من أن سبب الابتداع الجهل بلسان العرب. وأخرج البيهقي في البعث عن الأصمعي قال: جاء عمرو بن عبيد إلى أبي عمرو بن العلاء يناظره في وجوب عذاب الفاسق، فقال له يا أبا عمرو: آلله يخلف وعده؟ فقال لن يخلف الله وعده، فقال عمرو، فقد قال: وذكر آية وعيد. فقال أبو عبيد: من العُجمة أُتيت، الوعيد غير الإيعاد، ثم أنشد:

وإني وإن أوعدته أو وعدته لمخلف إيعادي ومنجز موعدي

وأخرج البخارى في تاريخه الكبير عن الحسن البصرى، قال: إنما أهلكتهم العجمة وقال ابن قتيبة في كتابه (تأويل مشكل القرآن) إنما يعرف فضل القرآن من كثر نظره، واتسع علمه، وفهم مذاهب العرب، وافتنانها في الأساليب. وما خص الله به لغتها دون جميع اللغات، فإنه ليس في جميع الأمم أمة أوتيت من العارضة والبيان وإتساع المجال ما أوتيته العرب خصيصا من الله لما أرهصه في الرسول صلى الله عليه وسلم وأراده من إقامة الدليل على نبوته بالكتاب فجعله علمه كما جعل كل نبي من المرسلين من أشبه الأمور لما في زمانه المنبعث فيه فكان لموسى عليه السلام فلق البحر واليد والعصا وتفجر البحر في التيه بالماء الرواء إلى سائر أعلامه زمن السحر، وكان

(١) السيوطى، صون المنطق ص١٥/١٦.

لعيسى عليه السلام إحياء الموتى، وخلق الطير من الطين، وإبراء الأكمه والأبرص إلى سائـر أعلامه زمن الطب، وكان لمحمد صلى الله عليه وسلم الكتاب الذي لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتـوا بمثله لم يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا إلى سائر أعلامه من البيان[1].

ولما كان الصحابة هم أعلم الناس بالعربية لا يلحقهم في ذلك أحد كانوا أعلم الناس بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم، ولذا لم يقع منهم اختلاف قط في الكتاب. ولم يتنازعوا قط في شيء من عقائده أو قواعده، ولم يقولوا قط لِمَ يكون هذا؟، ولا كيف يكون. لأن الله تعالى لم يخاطبهم بشيء لم يجر عليه اصطلاحهم فالعربية هى أساس العلم في الإسلام.

العربية أساس التعقل الصحيح للإسلام :

ومن المهم أن ننبه إلى العرب لم يكونوا أعلم بالإسلام لأنهم أعلم بالعربية، ولأن القرآن نزل بلسانهم فقط، وإنما هم أعلم بالإسلام لأن العربية هى أساس التعقل الصحيح في الإسلام، وذلك لأن العبارة والمجاورة والاصطلاح في العربية جاءت على أدق القواعد العقلية التى لا نعرف لها نظيرا في لغات البشر ولذا فإن تعقل العلم بها يكـون على أصـح القـواعـد التى يكون بها التعقل عند الناس، ولأن القرآن جاء ليخـاطب العقل الإنساني في كمال فطرته، لذا فلم تكن في الأرض لغة بقى خطابها على كمال الفطرة كما هو الخطاب في العربية، ولم يكن على الأرض قوم هم أقرب إلى كمال الفطرة من العرب.

فاللغة العربية في منابعها الأولى وقبل دخول العجمة عليها تمثل الفطرة السليمة المهتدية بالعقل الصحيح إلى آيات الله في الكون، ولذا كانت هذه العربية باشتقاقها وتراكيبها وأساليبها ترجمة لعقول واعية متيقظة سديدة النظر، بريئة من القصور والعوج

(١) السيوطى، صون المنطق ص٢٢، ٢٣.

الموجود في اللغات الأعجمية، ولذا كانت اللغة العربية هى اللغة التى اختارها الله تعالى لتوجيه استعدادات الفطرة السليمة، وإلى العلم العملي غير الجدلى وإلى الإيمان الذي هو: قول باللسان، وتصديق بالجنان، وعمل بالأركان ولذا كان سهلا ـ بتوفيق الله تعالى وتسديده ـ على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فهم القرآن واستيعابه علما وعملا واعتقادا، دون أن تختلف عليه قلوبهم وعقولهم، كما اختلفت عليه عقول وقلوب بعض الذين خلفوا من بعدهم بسبب عجمتهم، ولم يثر فيهم هذا الجدل العقيم الذي ثار بين الفرق ـ التى أهلكتها العجمة ـ حول قضايا ومسائل بدت لهؤلاء محيرة مشتبهة فتحيرت فيها عقولهم، بينما وسعتها عقول الصحابة رضى الله عنهم فلم تحيرهم ولم تبلبلهم، فسلموا لله تعالى ما وصف به نفسه وما سمى به نفسه على ما سمّى ووصف دون تشبيه أو تعطيل، وآمنوا بقدر الله وسلطانه على خلقه وعلى الناس وأقروا في نفس الوقت بمسئولية الناس عن أعمالهم ولم يتحيروا في الإنسان مخير هو أو مسير، ولا في الصفات هل هى عين الذات أم غيرها، ولا في عذاب القبر ولا في البعث ولا في الحساب والجزاء كما تحير غيرهم. ولم يكن ذلك لأنهم تعبدوا بالنصوص دون أن يستعملوا عقولهم فيها كما يقول الجهلاء، وإنما استعملوا عقولهم كما يجب أن يستعمل العقلاء عقولهم أى فيما خلقت العقول من أجله وفيما فطرت عليه.

المعنى والماهية :

والفرق بين عقول الصحابة وعقول الفلاسفة، هو الفرق بين عقول العرب وعقول اليونان، وهو الفرق بين الإسلام والفلسفة، وهو الفرق بين العلم والجهل وهو الفرق بين الله والإنسان وبين علم الله وبين علم الإنسان والجهل بهذا الفارق هو سبب الجهل والاشتباه والاختلاف عند الفلاسفة وأتباعهم من المتكلمين. فالله تعالى فطر عقول الناس على معرفة المعنى دون الماهية، لأن الماهية لا يمكن أن يعلمها إلا الله وحده، ومعرفة معنى الشيء هى معرفة صفاته التى تميزه عن غيره، أما معرفة الماهية فهي معرفة الشيء على ما هو عليه على الحقيقة ولا يعرف ذلك إلا خالق الأشياء ومقدرها، والعليم بسرها.

ولقد بنى عقل اليونان منطق اليونان وفلسفة اليونان على لغة اليونان ومصطلحها الذي يقوم على الوثنية اليونانية التى تجهل الربوبية، ولا تعرف الرب إلا على مثال المربوبين وتعتقد أن الإنسان في ظروف معينة ليس هنا مجال بسطها يمكن أن يعرف كما تعرف الأرباب، والأرباب عندهم كثير!!.

لذلك تصور هؤلاء أن الإنسان قادر على معرفة حقائق الأشياء على ما هي عليه أى ماهياتها، ولذا كان مبحث الفلسفة اليونانية الأساسي هو مبحث الماهية وكذلك كان مبحث الماهية هو أساس المنطق عندهم.

ولأن مبحث الماهية لا يقوم على علم البته ولا أثارة من علم، لذا كان لابد أن يقوم على الجدل المحض الذي يقوم على تلفيق البراهين التى لا تفيد علما، وإنما قد تفحم الخصم الذي عجز عن ردها لا بسبب صحتها ولكن بسبب عجز عقله عن الجدل.

ذم السلف للمنطق والفلسفة والكلام والجدل :

ولذا فإن السلف لم يذموا المنطق والفلسفة والكلام والجدل بغير علم لأنهم ضد العقل أو متعبدون بالنصوص بلا عقل وإنما ذموها لأنها جدل بغير علم، وكلام بغير علم، لأن مباحث المنطق والفلسفة تقوم كما قلنا أساسا على البحث في الماهية لا في معاني الأشياء.

لكنهم لم يذموا قط المباحث في معاني الأشياء والتى هى مجال العقل، وبها يقوم العقل...

البحث في معاني الأشياء :

والعربية أوسع لغات الأرض تصرفا في البحث في معاني الأشياء ومن أراد معرفة ذلك فليرجع إلى معاجم اللغة العربية ليرى هذه الكنوز الدقيقة من علم معاني الأشياء، وهى ليست أوسعها فقط، وإنما أدقها تحديدا، وأضبطها اصطلاحا، وليس

هنا مجال بسط القول في هذا الباب الذي أتى العرب فيه بالعجب العجاب، ولكني أورد مثلا يدل على ما وراءه، ولعل ذلك ينبه شهية الباحثين إلى التعرف على ذلك الكنز المدفون!!، وليكن ذلك المثل هو النظر وهيئاته في مختلف أحواله.

إذا نظر الإنسان إلى الشيء بمجامح عيْنه قيل: رَمَقه. فإن نظر إليه من جانِب أذُنه قيل: لحظه. فإن نظر إليه بعجلة قيل: لَمحه. فإن رماه ببصره مع حدة نظر قيل: جَدحه بطرْفه؛ وفي حديث ابن مسعود رضى الله عنه: حدث القوم ما جد حوك بأبصارهم. فإن نظر إليه بشدَّةٍ قيل: أرْشقَه وأسَفّ النظر إليه. فإن نظر إليه نظر المتعجب منه والكاره له والمبغض إياه قيل: شفنه وشفن إليه شفونا وشفنا. فإن أعاره لحظ العداوة قيل: نَظر إليه شزْراً. فإن نظر إليه بعين المحبة قيل نظر إليه نظرة ذي عَلْق. فإن نظر إليه نظر المستثْبت قيل: توضَّحه. فإن نظر واضعا يده على حاجبه مستظلا بها من الشمس ليسْتبين المنظورُ إليه قيل: استكفه، واستوْضَحه، واستشْرفه. فإن نشر الثوب ورفعه لينظر إلى صَفاقته أو سَخافَتِه ويرى عَوَاراً إن كان به قيل: استشْفه. فإن نظر إلى الشيء كاللمحة ثم خفى عنه قيل لاحه لوحة، كما قال الشاعر: وهل تنفَعنيٍّ لوْحَةٌ لو أُلُوحُها

فإن نظر إلى جميع ما في المكان حتى يعرفه قيل: نفضه نفضا. فإن نظر في كتاب أو حساب ليهذبه ويستكشِف صحته وسقمه قيل: تصفَّحه. فإن فتح جميع عينيه لشدَّة النظر قيل: حدَّق. فإن لألأهما قيل: برَّق. فإن انقلب حملاق عينه قيل: حمْلق. فإن غاب سواد عينيه من الفزع قيل: برق بصره. فإن فتح عين مُفَزَّعٍ أو مُهَدَّد قيل: جَّمح. فإن بالغ في فتحها وأحد النظر عند الخوف قيل: حَدَج. فإن كَسَر عينه قبل النظر قيل: دنقس وطرْفَش (عن أبي عمرو). فإن فتح عينيه وجعل لا يطرف قيل: شخص (وفي القرآن: شاخِصة أبصارهم). فإن أدام النظر مع سكون قيل: أَسْجَد (عن أبي عمرو). فإن نظر إلى أُفق الهلال لِلَيْلته ليراه قيل: تبصره. فإن إتبع الشيء بصرهُ، قيل: أثْأَره وأثار إليه البصر[1].

(١) الثعالبي، فقه اللغة ص٩٧/٩٩.

فتأمل أى عقل ذلك الذي يحدد المعاني ويميزها، ويصفها، ويفرق بينها على ما بينها من دقائق الفروق ؟.

فهل يقول عاقل إن أمة هذا شأنها في التمييز والوصف والتحديد والتفرقة والتدقيق أمة جاهلة بدائية لا تعقل ولا تتفكر؟.

وهل يقول عاقل إن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، والذين عقلوا ذلك كله أصحاب نقل لا عقل؟ كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا وجهلا..

الكتاب والسنة جاءا بالمعاني لا بالماهيات :

ولقد جاء الكتاب وجاءت السنة ببيان المعاني لا ببيان الماهيات، فلم يتكلم الكتاب ولم تتكلم السنة عن ماهية ذات الله أو أسمائه أو صفاته أو الروح أو النفس أو الملائكة أو الجنة أو النار أو العرش أو الكرسي أو اللوح المحفوظ أو الرؤية أو النزول أو الاستواء.. إلخ وإنما تكلم الكتاب والسنة عن معاني هذه الأشياء، وعلم الرسول صلى الله عليه وسلم أصحابه معاني هذه الأشياء، وجاء الأمر من الله بتدبر المعاني وفهمها وتعقلها قال تعالى:

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾

(محمد: ٢٤)

وقال تعالى:

﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾

(الرعد: ٤)

وقال تعالى:

﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾

(الزمر: ٢١)

وقال:

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ ﴾

(طه: ١٢٨)

ولكنه سبحانه نهى عن البحث في حقائق الأشياء التى لا تدركها العقول، فلما سأل اليهود النبي صلى الله عليه وسلم عن حقيقة الروح أجاب ربه عنه بقوله:

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ۖ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

(الإسراء: ٨٥)

فبين أن الماهية أى حقيقة الروح من أمر الله، وأن علم البشر لا يصل إلى حقائق الأشياء. .

* * * *

التفويض:

فالذين قالوا إن الصحابة قد فوضوا في العلم بأسماء الله وصفاته ولم يبحثوا بإطلاق جاهلون بالفرق بين التفويض في الماهية والتفويض في المعنى وفهموا قول السلف: أمروها ـ أى آيات وأحاديث الصفات ـ كما جاءت أنها تفويض في المعنى والماهية وهذا باطل وجهل، لأن التفويض الذي عرفه الصحابة وقال به السلف هو تفويض الماهية لأنه تكلف علم مالا سبيل إلى العلم به، أما تفويض المعنى فهو مستحيل لأنه رد للقرآن والسنة، ولأن معناه أن الصحابة جهلوا القرآن والسنة وأن الله تعالى قد أقرهم على ذلك بل حمدهم عليه، وأثنى عليهم به وهذا مالا يقول به عاقل لأنه إبطال للرسالة، وخلاف لما أمر الله به من الفهم والتدبر والتعقل.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية «وأما التفويض: فمن المعلوم أن الله تعالى أمرنا أن نتدبر القرآن، وحثنا على عقله وفهمه، فكيف يجوز مع ذلك أن يراد منا الإعراض عن فهمه ومعرفته وعقله؟! وأيضا فالخطاب الذي أريد به هُدانا والبيان لنا، وإخراجنا من الظلمات إلى النور، إذا كان ما ذكر فيه من النصوص ظاهره باطل وكفر، ولم يرد منا أن نعرف لا ظاهره ولا باطنه، أو أريد منا أن نعرف باطنه من غير بيان في الخطاب لذلك، فعلى التقديرين لم نُخاطبْ بما بين فيه الحق، ولا عرفنا أن مدلول هذا الخطاب باطل وكفر.

وحقيقة قول هؤلاء في المخاطِب لنا: أنه لم يبين الحق، ولا أوضحه، مع أمره لنا أن نعتقده، وأن ما خاطبنا به وأمرنا باتباعه والرد إليه لم يبين به الحق ولا كشفه، بل دل ظاهره على الكفر والباطل، وأراد منا ألا نفهم منه شيئا، أو أن نفهم منه مالا دليل عليه فيه ـ وهذا كله مما يُعلم بالاضطرار تنزيه الله ورسوله عنه، وأنه من جنس أقوال أهل التحريف والإلحاد»[1].

وقال: «والآيات التى ذكر الله فيها أنها متشابهات لا يعلم تأويلها إلا الله، إنما نفى عن غيره علم تأويلها [يقصد بيان كيفها]، لا علم تفسيرها ومعناها، كما أنه لما سئل مالك رضى الله عنه عن قوله تعالى:

﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ (طه: ٥)

كيف استوى؟ قال: «الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة»، وكذلك قال ربيعة قبله، فبين مالك أن معنى الإستواء معلوم، وأن كيفيته مجهولة، فالكيف المجهول هو من التأويل الذي لا يعلمه إلا الله وأما ما يعلم من الاستواء وغيره فهو من التفسير الذي بينه الله ورسوله»[2].

وعليه فإن الصحابة رضى الله عنهم لم ينقلوا عن الرسول صلى الله عليه وسلم فقط وإنما نقلوا وعقلوا، وهم أعلم الأمة بالمنقول ومعانيه.

(١) ابن تيمية، موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول جـ١ ص١١٩.

(٢) ابن تيمية، موافقة صحيح المنقول... جـ١ ص١٦٨.

ثناء الله على الصحابة بالعلم والفهم والصلاح

ولقد أثنى الله تعالى على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعلم والفهم

قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ (الجمعة: ٢)

قال مالـك الحكمة... طاعة الله، والاتباع لها [أى السنة] والفقه في دين الله والعمل به، وقال ابن وهب سمعت مالكا مرة أخرى يقول: الذي يقع في قلبي أن الحكمة هى الفقه في دين الله قال: ومما يبين ذلك أن الرجل تجده عاقلا في أمر الدنيا ذا نظر فيها وبصر بها ولا علم له بدينه، ونجد آخر ضعيفا في أمر الدنيا عالما بأمر دينه بصيرا به يؤتيه الله إياه ويحرمه هذا، فالحكمة الفقه في دين الله»[1].

ولأن الفقه في الدين فهمه وتعقل معناه، فرق بين الحفظ والفقه وأثنى على الفقه في الدين، وبين أن الحفظ لا يغني عن الفقه أى الفهم فعن زيد بن ثابت رضى الله عنـه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: نضر الله امرءاً سمع منا حديثا فحفظه وبلغه غيره فرب حامل فقه ليس بفقيه..» الحديث رواه الحافظ المنذر في الترغيب وقال رواه ابن حبان في صحيحه.

ولأن الفهم في الإسلام له المقام الأسنى دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالفهم والفقه: أى الحكمة «قال ابن عباس رضى الله عنه: ضمنى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: اللهم علمه الحكمة. وقال أيضا: دعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم فمسح على ناصيتي، وقال: اللهم علمه الحكمة، وتأويل الكتاب»[2].

(١) ابن عبدالبر، جامع بيان العلم جـ١ ص١٧.

(٢) ابن القيم، اعلام الموقعين جـ١ ص١٨.

وقال مكحول: قيل لابن عباس: أنّى أصبت هذا العلم؟ قال: بلسان سئول وقلب عقول[1]. قال سعيد بن المسيب: كان عمر يتعوذ بالله من معضلة ليس لها أبو حسن[2] وأبو حسن هو علي بن أبي طالب رضي الله عنه؛ وما روى عن عقل الصحابة وفقههم شيء كثير فالصحابة رضوان الله عليهم هم الذين توفرت فيه الصفات الضرورية لحفظ دين الله وحفظ كتابه وسنة رسوله قولا وعملا وتصديقا وإيمانا، والشهادة بذلك ثابتة لهم من الله تعالى ورسوله في الكتاب والسنة، مع ما توافر العلم به «من امتثالهم لأمر الله ورسوله، ومن جهادهم وطاعتهم، وتبليغهم عنه الكتاب والسنة وهدايتهم الناس إلى طريق الجنة، ومواظبتهم على الصلوات والزكوات وأنواع القربات في سائر الأحيان والأوقات، مع الشجاعة والبراعة والكرم والإيثار، والأخلاق الجميلة التى لم تكن في أمة من الأمم المتقدمة، ولا يكون أحد بعدهم مثلهم في ذلك فرضى الله عنهم أجمعين، ولعن من يتهم الصادق ويصدق الكاذبين. آمين يارب العالمين»[3].

فأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم هم: «أفقه الأمة، وأبر الأمة قلوبا، وأعمقهم علما، وأقلهم تكلفا، وأصحهم قصودا، وأكملهم فطرة، وأصفاهم أذهانا، الذين شاهدوا التنزيل، وعرفوا التأويل، وفهموا مقاصد الرسول فنسبة آرائهم وعلومهم وقصودهم إلى ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم كنسبتهم إلى صحبته، والفرق بينهم وبين من بعدهم في ذلك كالفرق بينهم في الفضل فنسبة رأى من بعدهم إلى رأيهم كنسبة قدْرهم إلى قدْرهم.

قال الشافعي رحمه الله في رسالته البغدادية التى رواها عنه الحسن بن محمد الزعفراني، وهذا لفظه: وقد أثنى الله تبارك وتعالى على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في القرآن والتوراة والإنجيل، وسبق لهم على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم من الفضل ما ليس لأحد بعدهم، فرحمهم الله وهنأهم بما آتاهم من ذلك ببلوغ أعلى منازل الصديقين والشهداء والصالحين، أدّوا إلينا سُنن رسول الله صلى

(١) نفس المصدر ص١٩.

(٢) نفس المصدر ص١٦.

(٣) ابن كثير الباعث الحثيث في اختصار علوم الحديث ص١٨٢/١٨٣.

الله عليه وسلم، وشاهدوه والوحي ينزل عليه فعلموا ما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم عاما وخاصا وعزما وإرشادا، وعرفوا من سنته ما عرفنا وجهلنا، وهم فوقنا في كل علم واجتهاد وورع وعقل وأمر استدرك به علم، واستنبط به، وآراؤهم لنا أحمد، وأولى بنا من رأينا عند أنفسنا، ومن أدركنا ممن يُرْضَى أو حُكى لنا عنه ببلدنا صاروا فيما لم يعلموا لرسول الله صلى الله عليه وسلم فيه سنة إلى قولهم إن اجتمعوا، أو قول بعضهم إن تفرقوا، وهكذا نقول، ولم نخرج عن أقاويلهم، وإن قال أحدهم ولم يخالفه غيره أخذنا بقوله»[1].

فمن أجل ما علم الله تعالى من كمال فطرة الصحابة، وصفاء أذهانهم، وكمال استعدادهم، وسلامة قلوبهم، وصحة قصودهم اختارهم الله لحفظ دينه وكتابه وسنة نبيه، واختارهم من أجل ذلك لصحبة نبيه صلى الله عليه وسلم.

اختيار الله تعالى للصحابة

لقد اختار الله تعالى محمدا صلى الله عليه وسلم واختار له أصحابه، جاء في مقدمة الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجز العسقلاني أن البزار روى في مسنده بسند رجاله موثقون من حديث سعيد بن المسيب عن جابر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله اختار أصحابي على الثقلين سوى النبيين والمرسلين، وقال: قال عبدالله بن هاشم الطوسى حدثنا وكيع قال سمعت سفيان يقول في قوله تعالى:

﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَـٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ﴾

(النمل: ٥٩)

قال هم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم.

(١) ابن القيم، اعلام الموقعين جـ٢ ص٧٩/ ٨٠.

وقال الخطيب البغدادي أخبرنا الحسن بن أحمد بن إبراهيم ثنا أبو بكر الشافعي ثنا محمد بن هشام بن أبي الدميك ثنا إبراهيم بن زياد سبلان قال: قال الشافعي (وحدثنا) أبو عبدالله محمد بن خلف المروزي ثنا الفضل بن الوليد الغزى قالا ثنا إبراهيم بن سعد الزهرى عن بشر الحنفي عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله إختارني واختار أصحابي فجعلهم أصهارى وجعلهم أنصاري، وأنه سيجىء في آخر الزمان قوم ينتقصونهم، ألا فلا تناكحوهم، ألا فلا تنكحوا إليهم، ألا فلا تصلوا معهم، ألا فلا تصلوا عليهم، عليهم حلت اللعنة»[1].

وذكر ابن القيم ما رواه الحميدى ثنا محمد بن طلحة قال: حدثني عبدالرحمن بن سالم بن عبدالرحمن بن عويلم بن ساعدة عن أبيه عن جده أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن الله اختارني، واختار لى أصحابا، فجعل لى منهم وزراء وأنصارا وأصهارا» الحديث ومن المحال أن يحرم الله الصواب من اختارهم لرسوله وجعلهم وزراءه وأنصاره وأصهاره، ويعطيه من بَعْدهم في شىء من الأشياء.

ثم ذكر ما رواه أبو داود الطّيالِسى ثنا المسعودى عن عاصم عن أبي وائل عن ابن مسعود رضى الله عنه قال: إن الله نظر في قلوب العباد فوجد قلب محمد خير قلوب العباد، فبعثه برسالته، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد فاختارهم لصحبة نبيه ونصرة دينه فما رآه المسلمون حسنا فهو عند الله حسن، وما رآه المسلمون قبيحا فهو عند الله قبيح»[2].

معنى الاختيـــار:

واختيار الله الصحابة معناه أنه اصطفاهم من خلقه واجْتباهم وذلك هو ما ذكره القرآن.

---

(١) الخطيب البغدادى، الكفاية في علم الرواية ص٤٨.

(٢) ابن القيم، اعلام الموقعين جـ٣ ص١٣٨.

قال تعالى:

﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ﴾

(النمل: ٥٩)

قال ابن عباس في رواية أبي مالك: هم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، والدليل عليه قوله تعالى:

﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾

(فاطر: ٣٢)

وحقيقة الاصطفاء: افتعال من التصفية، فيكون قد صفاهم من الأكدار، والخطأ من الأكدار فيكونون مُصَفَّين منه، ولا ينتقض هذا بها إذا اختلفوا لأن الحق لم يَعْدُهم، فلا يكون قول بعضهم كدرا، لأن مخالفته الكدر، وبيانه يزيل كونه كدرا، بخلاف ما إذا قال بعضهم قولا ولم يخالف فيه فلو كان قولا باطلا ولم يرده راد لكان حقيقة الكدر، وهذا لأن خلاف بعضهم لبعض بمنزلة متابعة النبي صلى الله عليه وسلم في بعض أموره، فإنها لا تخرجه عن حقيقة الاصطفاء»[1].

والاجتباء مثل الاصطفاء، قال تعالى:

﴿ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ ﴾

(الحج: ٧٨)

(١) ابن القيم، اعلام الموقعين جـ٤ ص١٣١.

فأخبر تعالى أنه اجتباهم، والاجتباء كالاصطفاء، وهو افتعال من «اجتبى الشيء يجتبيه، إذا ضمه إليه وحازه إلى نفسه، فهم المجتبوْن الذين اجتباهم الله إليه وجعلهم أهل خاصته وصفوته من خلقه بعد النبيين والمرسلين، ولهذا أمرهم تعالى أن يجاهدوا فيه حق جهاده، فيبذلوا له أنفسهم، ويفردوه بالمحبة والعبودية، ويختاروه وحده إلـٰهاً معبودا محبوبا على كل ما سواه كما اختارهم على من سواهم، فيتخذونه وحده إلههم ومعبودهم الذي يتقربون إليه بألسنتهم وجَوَارحهم وقلوبهم ومحبتهم وإرادتهم، فيؤثرونه في كل حال على من سواه، كما اتخذهم عبيده وأحبَّاءه وآثرهم بذلك على من سواهم، ثم أخبرهم تعالى أنه يسَّرَ عليهم دينه غاية التيسير، ولم يجعل عليهم فيه من حرج البتة لكمال محبته لهم ورأفته ورحمته وحنانه بهم؛ ثم أمرهم بلزوم ملة إمام الحنفاء أبيهم إبراهيم، وهى إفراده تعالى وحده بالعبودية والتعظيم والحب والخوف والرجاء والتوكل والانابة والتفويض والاستسلام؛ فيكون تعلق ذلك من قلوبهم به وحده لا بغيره، ثم أخبر تعالى أنه نوّه بهم وأثنى عليهم قبل وجودهم وسماهم عباده المسلمين قبل أن يظهرهم، ثم نوّه بهم وسماهم كذلك بعد أن أوجدهم اعتناء بهم ورفعة لشأنهم وإعلاء لقدرهم، ثم أخبر تعالى أنه فعل ذلك ليشهد عليهم رسوله ويشهدوا هم على الناس؛ فيكونون شهودا لهم بشهادة الرسول شاهدين على الأمم بقيام حجة الله عليهم، فكان هذا التنويه، وإشارة الذكر لهذين الأمرين الجليلين ولهاتين الحكمتين العظيمتين»[1].

اختيار القرون

وهناك نوع آخر من الاختيار والاصطفاء هو اختيار القرون واصطفاؤها وهو اختيار يكون الرسول وأصحابه خير القرون، ولكن تليه قرون مختارة لأهداف عظيمة، هى استكمال عملية حفظ الدين والكتاب والسنة، ذلك لأن الاصطفاء لو اقتصر على الرسول وأصحابه لما تمت عملية الحفظ إذ لابد من آخرين يأخذون عن الصحابة ثم

(١) نفس المصدر جـ٤ ص١٣٣/١٣٤.

لابـد من آخرين يأخذون عمن أخذ من الصحابة حتى يتم تأمين عملية الحفظ، وتثبيت الدّين، ويجب أن يكون هؤلاء ثم هؤلاء ممن توافرت فيهم شروط الحفظ وإن لم يبلغوا مرتبة الصحابة.

وهذا النوع من الاختيار لم يتنبه أحد من الباحثين حديثا في تاريخ المسلمين إلى مغزاه الإسلامي والتاريخي.

وهذا الاختيار ثابت بالنصوص الصحيحة المنصوص عليها في الصحاح والسنن وهى نصوص لا يمكن التشكيك في صحتها وحجيتها ودلالتها الصريحة.

وهى نصوص بالغة الأهمية في تصحيح النظر إلى الفترة الزاهرة من تاريخ الإسلام ولا يعنينا في شىء المشككون في تاريخ الإسلام من المستشرقين الصليبيين واليهود والشيوعيين، فهؤلاء أهدافهم معروفة، ومطاعنهم معروفة.

ولا يعنينـا أيضـا الـرافضـة المعاصرون لأنهم يسيرون على خطى أسلافهم من الرافضة القدامى، والذين نذروا أنفسهم للطعن في تاريخ أهل السنة والجماعة من الصحابة إلى الأمويين، فالرافضة هم أهل الطعن في تاريخ أهل السنة، وأحقادهم معروفة، وأهدافهم معروفة، والروايات التى تطعن في الصحابة وفي تاريخ الأمويين في كتب الأخبـار هى روايات الرافضة، وعليها اعتمد الرافضة المعاصرون وعليها اعتمد أعداء الإسلام من الصليبيين واليهود والشيوعيين.

إنما الذي يعنينا هم الكتاب المنسوبون إلى أهل السنة من الذين طعنوا في الصحابة والتـابعـين وتـابعيهم مثل طه حسين والعقاد، ومن أساتذة التاريخ الذين يقومون بتـدريس التـاريخ الإسلامي في جامعاتنا، والصحافيون الذين يسودون صفحات طويلة في الـطعن في تاريخنا، وذلك الطعن الذي كانت حصيلته هذه الأجيال من الشباب المسلم التى تسىء الظن بتاريخ الإسلام. ولو أن المصيبة اقتصرت على ذلك لهان البلاء، ولكن ذلك الطعن يقول به بعض قادة الدعاة المسلمين الذين لهم أثر كبـير، ومكان خطير بين الشباب المسلم، فهم قد أذاعوا في الشباب المسلم مقالة

مفادها، أن خط الانحراف في تاريخ الإسلام قد بدأ بمعاوية رضى الله عنه، وأن علماء الإسلام قد انحازوا منذ ذلك التاريخ الذي تحولت فيه الدولة من الخلافة الراشدة إلى الملك العضوض الجبرى المستبد الذي جعل الحكم الإسلامي وراثة، ولقد استقرت هذه الصورة الكئيبة البغيضة المظلمة الظالمة في أذهان كثير من المسلمين الذين لا يتهمون بكيد مقصود للإسلام وأهله، بل الذين عندهم حب شديد للإسلام وحماس شديد في العمل على رفعة شأنه.

ففي اليوم التاسع من المحرم عام ١٤٠٧ هجرية الموافق للثالث عشر من شهر سبتمبر عام ١٩٨٦ نشر أحمد بهجت في الركن الثابت له بجريدة الأهرام القاهرية رأيا له ولجماعة من الصحفيين يمثل رأيا انتشر هذه الأيام في الناس والذي أشرت إليه، ولولا أن أحمد بهجت من الكتاب الذين انحازوا إلى الإسلام وأصبحوا يدافعون عنه وعن شريعته لما همنى أمره، وإنما همنى أمره لأن هذا الرأى الخطير شاع في أهل السنة كما شاع في الرافضة أو كما أشاعته الرافضة يقول ـ وأنا أصل الحديثين معا ـ «كنا مجموعة من الكتاب المصريين قد اجتمعنا للترحيب بصديقنا العربي الناشر محمد الوزير.. وجلسنا نتحدث في همومنا وأحلامنا، فانساق الحديث إلى أزمة العالم الإسلامي.

قال أحدنا: إن أزمة العالم الإسلامي اليوم أنه. في معظمه ـ يحكم بأسلوب معاوية بن أبي سفيان. كانت الفكرة غريبة ومثيرة فقلنا له كيف؟. قال: أقول لكم كيف... لنسأل أنفسنا ما الذي فعله معاوية حين صار إليه أمر الخلافة. لقد قامت الخلافة الإسلامية على الشورى.. كما قامت على نظرة متفردة إلى المال. كان الأمر شورى بين حكماء الأمة وعقلائها.. ووجوه الرأى فيها.. وكان انتخاب الخليفة يتم بالبيعة.. والاختيار الحر. أما النظرة إلى المال فكانت تنبع من الآية القرآنية الكريمة التى تقول:

﴿ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمۡۚ ﴾

(النور : ٣٣)

وكان هذا يعنى أن المال في الإسلام هو مال الله تعالى والبشر مستخلفون عليه، لينظر الله تعالى كيف يتصرفون فيه . . هاتان الدعامتان . . الشورى والمال . . هما روح الخلافة . . ثم جاء معاوية وقال للناس سوف اختار لكم أيها الناس، وفي ذهني مصلحتكم إن شاء الله . وهكذا تم تقويض الدعامة الأولى وهى الشورى، ثم عمد معاوية إلى المال جعله في أكياس . وراح يعطيه من يشاء ويمنعه عمن يشاء، واستقر في أذهان الخلق أن المال مال الخليفة لا مال الله، وبسقوط الدعامة الثانية تم الفصل بين الحياة والعقيدة . . وصار المسلمون في جانب والإسلام في جانب . ومنذ ذلك التاريخ تحول واقع المسلمين الفعلى إلى ما يتحول إليه الناس تحت ملك عضوض . . وبعد الحديث عن واقع المسلمين اليوم ومشابهته لعمل معاوية ـ وأقول أنا رضى الله عنه فإنه لا يترضى عليه ـ بعدها يقول : إن حكم العالم بأسلوب معاوية لا يصلح اليوم ربما كان يصلح أيام معاوية، ولكنه بالقطع لا يصلح الآن .

ثم يستمر في الحلقة التالية قائلا : «وضع معاوية البذرة، وقامت فلسفة بنى أمية وبنى العباس عن الاستغناء عن الشورى وعن نظام المال الإسلامي الذي يعتبر المال مملوكا لله . لا تفترق فترة حكم بنى أمية عن حكم بنى العباس في هذا . . وإن افترقتا في عشرات الأشياء الأخرى . ولقد نظر العلماء يومئذ لما يجرى وقال الذين امتحن الله قلوبهم بالتقوى [الصحيح للتقوى] : لقد ثلم الإسلام ثلمة . . وعاد الملك العضوض يحتل مقام الخلافة . وكان هؤلاء أقلية لا تستطيع أن تسبح ضد تيار الدولة . . أما بقية العلماء فقالوا : قضاء الله وقدره لا نقول شيئا . سد أغلبية العلماء أفواههم وأخلدوا إلى الصمت . لقد شاهدوا الذين اعترضوا وهم يختفون بعد اعتراضهم مباشرة في سجون الدولة الأموية والعباسية . وبسد هذين البابين على العلماء، باب المال وباب الشورى صار المجال مفتوحا أمامهم في شروط صحة الوضوء ونواقضه، وحكم الحيض والنفاس . وبغياب الحرية عن المجتمع الإسلامي بدأ مد الفكر يخبو فيه . . وراح العلماء الذين يعترضون في قلوبهم يهجرون المجتمع إلى صوامعهم وزواياهم ويقضون أيامهم في العزلة . . أما غيرهم من المنافقين فقد برزوا في الساحة، وصعدوا على المسرح، وبدأوا يمارسون أدوارهم في نفاق الأمراء والوزراء، ولم يعد باقيا من عطر

العصور الأولى سوى لقب أمير المؤمنين وفي دنيا يحكمها حاكم بلا شورى، في دينا يحكمها نظام للمال ليس هو نظام الإسلام. . في جو ثقافي ينقسم فيه العلماء إلى علماء للحيض والنفاس، وعلماء للتبرير والنفاق. وفي هذا الجو كله توقف المحرك الذي يفجر طاقات المسلمين، وتحول المسلمون إلى ناس يعيشون حياة ممزقة. فعلى حين يأمرهم دينهم بأمور. . تفرض الحياة عليهم أمورا مختلفة تماما. سكت الصديق عن الكلام فقلنا له: لقد رسمت صورة قاتمة للعالم الإسلامي. .

فما هو الحل في رأيك؟. . ».

لا يعنينا الحل لأنه لا يحل شيئا، وإنما الذي يعنينا هو أنه قدم صورة قاتمة فعلا للعالم الإسلامي. . فهنيئا للرافضة، وهنيئا للصليبيين واليهود والشيوعيين لقد نجح تدبيرهم، وأصبح أهل السنة يرددون أكاذيبهم. ألا يدرى أحمد بهجت وأصحابه لو كان ما قالوه صحيحا ماذا يعني؟.

إنه يعنى أنْ الإسلام دين لا يصلح للحياة ولا للحكم، وإن دينا عجز أصحابه عن تطبيقه وهم قريبوا عهد بالنبوة وفيهم الصحابة، فهم اليوم أعجز بالتأكيد، ومن ثم تكون الدعوة إلى العودة إلى تطبيق الإسلام كمنهج حياة ودولة دعوة إلى مستحيل!!.

إن هذه الصورة القاتمة تناقض الواقع الحقيقي لتاريخ المسلمين، وتدين المسلمين جميعا وفيهم الصحابة كما تدين جميع علمائهم من التابعين إلى من بعدهم، وهى صورة رسمها سوء الفهم للإسلام ونصوصه في الشورى والمال، كما رسمتها روايات الكذابين من الرافضة، وهم المصدر الوحيد للطاعنين في تاريخ الإسلام. ثم هى تعارض حكم الله تعالى في القرون الأولى وأنها خير القرون وعهد بني أمية يدخل كله في القرون الثلاثة، فالقول بأن قرنهم كان شر القرون هو نقض لحكم الله ورسوله، وافتراء على أفضل عهود التاريخ الإسلامي بعد عصر الراشدين، وأفضل عهود التاريخ الإنساني كله بعد عصور الأنبياء.

لذا فإنـه كان مهما إلى أقصى حد أن يشهد الله للقرون الثلاثة الأولى وأن ينوه بفضلها، وأن ينبىء على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه اختارها واختار أهلها، وذلك حتى يحمى شهود دينه وكتابه ونبيه من تجريح الطاعنين بحقد أو جهل.

فقد أخرج البخارى ومسلم والترمذي من حديث عمران بن حصين رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ـ فما أدرى ذكر بعد قرنه: قرنين أو ثلاثة؟ ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ـ فما أدرى ذكر بعد قرنه: قرنين أو ثلاثة؟ ثم إن بعدهم قوما يشهدون ولا يستشهدون، ويخونون ولا يؤتمنون، وينذرون ولا يوفون ويظهر فيهم السِّمن» زاد في رواية «ويحلفون ولا يُستحلفون».

وللترمذي أيضا قال: «خير الناس قرنى، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يأتى من بعدهم قوم يتسمَّنُون، ويحبون السِّمن، ويعطون الشهادة قبل أن يُسألوها».

وفي رواية أبي داود قال «خير أمتى القرنُ الذي بُعثت فيهم، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم ـ والله أعلم: أذكر الثالث أم لا ؟ ثم يظهر قوم يشهدون ولا يُستشهدون، وينذرون ولا يوفون، ويفشُو فيهم السِّمن».

وفي رواية النسائي «خيرُكم قرنى، ثم الذين يلونهم ـ ولا أدرى: أذكر مرتين بعده أو ثلاثا؟ ـ ثم ذكر قوما يخونون ولا يؤمنون، ويشهدون ولا يستشهدون، وينذرون ولا يوفون، و يظهر فيهم السمن.

وأخرج البخارى ومسلم والترمذي من حديث عبدالله بن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم ثم يجىء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته».

وأخرج مسلم من حديث أبي هريرة رضى الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «خير أمتى القرن الذي بعثت فيهم، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم ـ والله أعلم: ذكر الثالث أم لا؟ ـ ثم يخلف قوم يحبون السَّمانة، يشهدون قبل أن

يستشهدوا وأخرج مسلم من حديث عائشة رضى الله عنها قالت: سأل رجل النبي صلى الله عليه وسلم «أى الناس خير؟ قال: القرن الذي أنا فيه، ثم الثاني، ثم الثالث.

فهذه شهادة من الله ورسوله للصحابة ولعصر بنى أمية وربما صدر بني العباس، لأن عصر بنى أمية أدرك الصحابة، وكان فيه التابعون وتابعوا التابعين وصدر بني العباس أدرك عصر تابعى التابعين وكان فيه تابعوا تابعوا التابعين الذين يفسر الشك في رواية القرنين والثلاثة لصالحهم.

فضـــل الصحبـــة

شهد الله ورسوله للصحابة بفضل العلم والعمل والإيمان، ووعدهم على ذلك بالجنة وجزيل الثواب، وأنبأ عن اختيارهم لصحبة رسوله لما علمه فيهم من ذلك لكن الله تعالى أعطى الصحابة من فضله فضلا لم ينالوه بعمل ولا علم ولا جهاد، وإنما نالوه بفضل الصحبة وحدها، وبهذا الفضل أصبحت للصحابة مكانة لا ينالها أحد من الأمة قط مهما كان جهده في العلم والعمل والإيمان والجهاد، وقد اتفق أهل السنة على أن مكانة الصحابي مهما قل علمه وعمله وجهاده وصحبته لا يمكن أن يلحق به أحد ممن بعده كائنا من كان ولو كان عمر بن عبدالعزيز رضى الله عنه، حتى قال بعضهم في معاوية وعمر بن عبدالعزيز: ليوم شهده معاوية مع رسول الله صلى الله عليه وسلم خير من عمر بن عبدالعزيز وأهل بيته[1] وفي قول آخر غبار دخل في أنف معاوية مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل من عمل عمر بن عبدالعزيز».

والأحاديث التى تثبت فضل الصحبة وأنه فضل لا يعدله عمل عامل من غيرهم كائنا من كان كثيرة نذكر منها ما أخرجه البخارى ومسلم والترمذي وأبو داود من حديث أبي سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

---

(١) ابن كثير، الباعث الحثيث ص١٨١.

«لا تسبوا أصحابي ـ وفي رواية مسلم: لا تسبوا أحدا من أصحابي ـ فلو أن أحدا أنفق مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه». وفي رواية «كان بين خالد بن الوليد وبين عبدالرحمن بن عوف شيء، فسبه خالد. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا تسبوا أصحابي، فإن أحدكم لو أنفق ـ وذكر الحديث».

أخرجه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذي، وزاد «فوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم ـ الحديث».

وعن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا تسبوا أصحابي: فوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبا ما بلغ مُدّ أحدهم ولا نصيفه» أخرجه مسلم.

وقد علق شيخ الإسلام ابن تيمية على ذلك قائلا: «قالوا نحن قد نعلم أن أعمال بعض من بعدهم أكثر من أعمال بعضهم، لكن من أين نعلم أن ما في قلبه من الإيمان أعظم مما في قلب ذلك والنبي صلى الله عليه وسلم يخبر أن جبل ذهب من التابعين الذين أسلموا بعد الحديبية لا يساوى نصف مد من السابقين، ومعلوم فضل النفع المتعدى بعمر بن عبدالعزيز، أعطى الناس حقوقهم وعدل فيهم، فلو قدر أن الذى أعطاهم ملكه وقد تصدق به عليهم لم يعدل ذلك مما أنفقه السابقون إلا شيئا يسيرا، وأين مثل جبل أحد ذهبا حتى ينفقه الإنسان، وهو لا يصير مثل نصف مد؟!.

ولهذا يقول من يقول من السلف: غبار دخل في أنف معاوية مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل من عمل عمر بن عبدالعزيز»[1].

وقال أبو بكر بن عياش ما سبقهم أبو بكر بكثرة صلاة ولا صيام ولكن بشيء وقر في قلبه، وهكذا سائر الصحابة حصل لهم بصحبتهم للرسول مؤمنين به مجاهدين معه إيمان ويقين لم يشركهم فيه من بعدهم.

(١) ابن تيمية، منهاج السنة جـ٣ ص١٨٣.

بل إن الأعجب من هذا أن فضل الصحبة يتجاوزهم إلى الأمة كلها طالما بقوا فيها فقد أخرج مسلم عن أبي موسى الأشعرى رضى الله عنه قال: «صلينا المغرب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم. ثم قلنا: لو جلسنا حتى نصلى معه العشاء. قال فجلسنا، فخرج علينا. فقال: مازلتم ههنا؟. قلنا: يارسول الله، صلينا معك المغرب. ثم قلنا نجلس حتى نصلى معك العشاء. قال: أحسنتم ـ أو أصبتم ـ قال: فرفع رأسه إلى السماء ـ وكان كثيرا ما يرفع رأسه إلى السماء ـ فقال: النجومُ أمنةُ السماء، فإذا ذهبت النجوم أتى السماء ما توعد، وأصحابي أمنةٌ لأمتى، فإذا ذهب أصحابي أتى أمتى ما يُوعدون».

والأشد من هذا عجبا أن فضل الصحبة تشمل بركته جيلين بعد الصحابة فقد أخرج البخارى ومسلم والترمذي من حديث أبي موسى الخدرى رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتى على الناس زمان، فيغزو فِئام من الناس، فيقولون: هل فيكم من صَاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فيقولون: نعم، فيفتح لهم. ثم يأتى على الناس زمان، فيغزو فِئام من الناس، فيقال: هل فيكم من صَاحب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فيقولون: نعم، فيفتح لهم. ثم يأتى على الناس زمان، فيغزو فِئام من الناس، فيقال: هل فيكم من صاحب من صاحبَ من صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فيقولون: نعم فيفتح لهم».

والأشد من هذا عجبا أنه في رواية أخرى لأبي سعيد تشمل بركة الصحابة جيلا رابعا، ومعنى هذا أنها تمتد لتشمل صدر دولة بني العباس وفيه تابعوا تابعوا التابعين!! وكان قد أدرك جزءا من عصر التابعين.

فقد أخرج مسلم عن جابر قال: زعم أبو سعيد الخدرى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «يأتى على الناس زمان تبعث فيه البعوث فيقولون: انظروا، هل تجدون فيكم أحدا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فيوجد الرجل، فيفتح لهم، ثم يبعث البعث الثاني فيقولون: انظروا هل فيهم من رأى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فيفتح لهم. ثم يبعث البعث الثالث فيقال: انظروا،

هل ترون فيهم من رأى من رأى أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم؟ ثم يكون بعث رابع، فيقال: انظروا: هل ترون فيهم أحدا رأى من رأى أحدا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم؟ فيوجد، فيفتح لهم». كل هذا الذي ذكرناه شكل اعتقاد أهل السنة في الصحابة وعليه قام فقههم في الصحابة وأحوالهم وأخبارهم، فمن لا يعرف اعتقاد أهل السنة وفقههم لا يعرف الصحابة وأخبارهم.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه.

* * * *